8 - السيدة أم أيوب الأنصارية

نسبها

اسمها أم أيوب، والدها قيس بن سعد، وقد تزوجت خالد بن زيد ويُكنى بأبي أيوب الأنصاري، وهو من أشراف الأنصار، وهما من الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: 100].

خبر إسلامها وزوجها

استيقظت أم أيوب ذات صباح، فوجدت زوجها أبا أيوب يجهّز نفسه للسفر، وقد تقلّد سيفه، وامتطى صهوة فرسه الشهباء، ولما سألته عن وجهته أخبرها أنه قاصدٌ مكة ليرى النبي الذي ظهر فيها، وأتى الناس بدين جديد يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام، والإيمان بالله الواحد الأحد.

ودَّعت أم أيوب زوجها وراحت تحدث نفسها، وتتمنّى لو استطاع هذا الرجل بحكمته، وبالذي جاء به أن يطفئ نار الحرب القائمة بين الأوس والخزرج، ويكون سفير خيرٍ، ووسيط إصلاحٍ، فينزع الأحقاد من صدورهم، ويضع نهاية لجرائم اليهود وشرورهم، لأنهم هم الذين يغذون الفتنة بينهم، ويسعّرون جذوتها، وتمنت لزوجها من كل قلبها العودة سالماً غانماً محملاً بكل خير.

وبقيت أم أيوب في انتظار زوجها، وقد تزاحمت في رأسها الأفكار، وانتابتها الوساوس والقلق الشديد من جرّاء طول غيابه، وباتت تتساءل عما تمَّ خلال سفره، وما إذا كان التوفيق قد حالفه.

ومضت عدة أيام فإذا هي تسمع طرقاتٍ على بابها، إنها طرقات أبي أيوب التي تميزها عن كل ما سواها، وهي الدليل على عودته إليها بسلام، وأدهشتها الابتسامة العريضة المرسومة على شفتيه، والإشراقة البهية التي تغطي وجهه، وخمَّنت أنَّ وراءها أخباراً طيبة وخيراً كثيراً، وتريثت قليلاً حتى يستريح من عناء الطريق، ولكن أبا أيوب كان أكثر رغبةً منها في التَّحدُّث لأن الأنباء السارة التي جاء بها ما يجدر به أن يؤخرها عن أحب الناس إليه، وأشدهم قلقاً عليه طيلة غيابه.

وروى لها أبو أيوب كيف التقى وأصحابه برسول الله ﷺ، وسمعوا كلامه العذب الجميل، وكيف أسر قلوبهم بحديثه، ومنح نفوسهم ثقة وأماناً ما سمعوا بهما قبلئذٍ فآمنوا بما جاء به، وصدَّقوه، وبايعوه على طاعة الله ونصرة رسوله، ولم يكد أبو أيوب يتم حديثه حتى أشرق وجه امرأته واخترق كلامه قلبها فقالت: وأنا أسلمت وجهي لله، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!

لقد عاشت أروع أيام حياتها مع أبي أيوب وهي تثق برأيه، ورجاحة عقله، وإرادة الخير لها، فكيف لا تتابعه في الدين الذي اعتنقه وقد جاء ليصلح أحوال الناس جميعاً، ويفيض عليهم بالخير العميم؟

وأحست أم أيوب بعد نطقها بشهادة الحق بسعادة غامرة واطمئنان لم تكن تعرفه من قبل، ولم يسبق لها أن ذاقت طعمه.

ولما نزل مصعب بن عمير ضيفاً على أسعد بن زرارة، وأصبح يقرأ على الناس القرآن، ويفقههم في دين الله، كان أبو أيوب واحداً من المثابرين على حضور مجالس مصعب ليحفظ ما يتلى من آيات القرآن، ويدخر ما يسمع من أحاديث النبي ﷺ، أو أحكام الفقه، وكان أبو أيوب يعي دوره، ويدرك أن عليه أن ينقل كل ما يسمعه إلى زوجه وأقاربه وسائر الأصحاب.

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة

واستيقظت يثرب ذات صباحٍ على أسعد خبر يمكن لها أن تسمعه،

ذلك أن سيد البشر في طريقه إليها، فلتفتح ذراعيها، وليخرج رجالها ونساؤها وأطفالها للترحيب به واستقباله أحسن استقبال، وها هو ذا الموكب النبوي يقترب شيئاً فشيئاً، وقد أبى بعض الناس انتظار وصوله إليهم، بل بادروا بالسير إليه حتى يكون لهم شرف مرافقته حين دخوله المدينة، ولما أطلَّ رسول الله ﷺ بطلعته البهية، واكتحلت أعينهم برؤيته، انطلقت الزغاريد والأهازيج، وهتفت الحناجر بأعذب نشيد:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلّٰهِ دَاعْ
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعْ
جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدِينَة مَرْحَباً يَا خَيْرَ دَاعْ

كان ترحيب الأنصار برسول الله ﷺ أعظم ترحيب شهدته المدينة، وامتدت الأيدي، يريد كل واحد أن يمسك بخطام ناقة رسول الله ﷺ القصواء وجرها إلى منزله، لينزل صاحبها ضيفاً عليه، بل أعزّ الضيوف، ومن ذا الذي لا يريد أن يحصل على مثل هذا الشرف العظيم؟ وما الذي حدث يومئذٍ؟.

حلول سيد الخلق ﷺ ضيفاً عندهم

حين قرأ رسول الله ﷺ الفرحة في عيون القوم، ولمس الصدق في وجوههم قال لهم ﷺ: «**خَلُّوا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»! وظلت القصواء تسير على هَوْنٍ، وكأنها تحاول اختيار المكان الذي ستتوقف فيه، ثم توقفت فجأة أمام دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري.

وكانت أم أيوب واقفة أمام دارها تراقب خطوات الناقة، وتنتظر أين يقف بها المسير، ولم تستطع أن تمنع انسكاب دموعها، عندما رأتها تتوقف أمام دارها، إنها دموع الفرح بأعظم ضيف يلجها، منذ اكتمل بنيانها!.

وأسرعت أم أيوب بالدخول لتهيئ لضيفها مجلسه، والمرقد الذي

سيأوي إليه، ولتجهز أحسن ما تحسن من طعامها الشهي، والحق أنها في تلك الساعة قد بلغت قمة السعادة، وأدركت أقصى غايتها.

وبادر أبو أيوب إلى حمل متاع ضيفه الكبير ليدخله داره، بينما وقف رسول الله ﷺ ليرد على تحيات مستقبليه، وترحيبهم بمقدمه، وقال أبو أيوب: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أي شرفٍ أصبنا اليوم بدخولك بيتنا؟!.

كان منزل أبي أيوب يتألف من طبقتين: عِلْوٌ، وسِفْلٌ، وقامت أم أيوب بترتيب الطبقة العليا لرسول الله ﷺ، ولما أعلمه أبو أيوب بذلك آثر رسول الله ﷺ المُقام في الطبقة السفلى لأنها أرفق به وأيسر له ولزواره، ولم يجد أصحاب الدار بُدّاً من النزول عند رغبة الضيف الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36].

وفي الليلة الأولى بقي رسول الله ﷺ في الطبقة السفلى، وصعد أبو أيوب وامرأته إلى الطبقة العليا، وحاولا النوم فاستعصى عليهما، وباتا في أرقٍ مستمر حتى مطلع الفجر، حيث نزلا وألقيا التحية على رسول الله ﷺ، ثم أخبره أبو أيوب أنهما لم يتمكنا من النوم طوال الليلة الماضية مخافة أن يزعجاه بأية حركة منهما، وخشية أن يكونا بينه وبين الوحي حين ينزل عليه، وأخذ أبو أيوب يرجو رسول الله ﷺ يلح عليه حتى أقنعه بالصعود إلى الطبقة العليا ونزل هو وزوجه إلى الطبقة السفلى، وما كان أشد تفاني الزوجين الكريمين في خدمة ضيفهما! وما كان أحرصهما على تأمين الراحة والهدوء له!.

وامتدت إقامة رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حين انتهاء تشييد المسجد النبوي الشريف والحجرات الملحقة به، والمعدة لسكنى أزواجه أمهات المؤمنين - رَضِيَ الله عَنْهُنَّ - فهنيئاً لأبي أيوب وامرأته استضافة من تتمنى العيون والقلوب أن يسكنها إلى الأبد.

ولما عزم رسول الله ﷺ على الانتقال عن دار أبي أيوب تأثّر هو

وزوجته أشد التأثر لمفارقته منزلهما، ولكنهما وجدا عزاءً حين علما أن سكنه من سكنهما جِدٌّ قريب، بل إن حجرات أمهات المؤمنين تقع في مواجهة دار أبي أيوب ﷺ.

كرم آل أبي أيوب

وكان من شِيم أبي أيوب وامرأته الكرم فقد رُوي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟**» قَالا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**» فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلاً، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلانٌ؟**» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي ! قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ[1] فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**» فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**»[2] وكان المضيف أبا أيوب الأنصاري وزوجه أم أيوب ﷺ أوليس عجيباً أن يُخرِجَ الجوعُ خيرَ ثلاثةٍ من بيوتهم، وقد خلا منها الطعام، أي طعام يمكن أن يسدَّ الجوع، وبعض الناس يقتلهم الشبع والتخمة، وينفقون المالَ من أجل بطونهم وشهواتهم بغير حساب؟.

---

(1) العِذْقُ: العنقود.

(2) رواه: مسلم/ كتاب: الأشربة/ باب: جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك/ برقم: (3799).

اجتهادها وزوجها في العبادة

كانت أم أيوب وزوجها من أكثر أهل المدينة سعادة بمجاورتهما للمسجد النبوي الشريف، وكان صوت بلال الشجي يملؤهما حبوراً حين يدعو المسلمين لأداء الفريضة خلف النبي ﷺ، وكانا يشكران الله على تلك النعمة غِبَّ كل أذان، ويحمدانه على هدايته لهما إلى دين الإسلام، لكن الشكر والحمد لا يكفي أن يصدرا عن اللسان، لأن الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، وليس القول وحده بكافٍ، ولهذا راحت أم أيوب تتنافس مع زوجها في العبادة، تصلي الفرائض، وتتقرب بالنوافل، ولا تنام الليل إلاَّ قليلا، ولا تكتفي بصيام شهر رمضان، بل تصوم في أيام أُخَر لأنها علمت أن الصوم لله وهو يجزي به.

وأما القرآن فقد أصبح لها خير جليس، فهي تقرأ أحياناً، وتحفظ حيناً آخر ما تسمعه من زوجها أبي أيوب ما يأخذه من فِي رسول الله ﷺ، وقد دفعها تدبُّر آيات القرآن إلى حب الخير للناس كافة، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، ودفع الأذى عن جميع المسلمين، وقد أفضى اجتهاد أم أيوب وزوجها في العبادة إلى اتِّخاذ مقعدين لهما بين من نالوا شرف رواية الحديث، وقد ذكرت كتب السيرة لهما بعض ما رواياه عن رسول الله ﷺ، وهذا يؤكد حسن إسلامهما، وصدقهما، والثقة فيما يرويان.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَابْنُ بَشَّارٍ وَاللَّفْظُ لابْنِ الْمُثَنَّى قَالا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ أَكَلَ مِنْهُ وَبَعَثَ بِفَضْلِهِ إِلَيَّ، وَإِنَّهُ بَعَثَ إِلَيَّ يَوْمًا بِفَضْلَةٍ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهَا لأَنَّ فِيهَا ثُومًا، فَسَأَلْتُهُ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ قَالَ: «**لا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ مِنْ أَجْلِ رِيحِهِ**» قالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا كَرِهْتَ[1].

(1) رواه: مسلم/ كتاب: الأشربة/ باب: إباحة أكل الثوم/ برقم: (3728).

لقد بايع أبو أيوب وأم أيوب رسول الله ﷺ على طاعة الله ورسوله فحافظا على هذا العهد حتى وافتهما المنية، رحمهما الله ورضي عنهما، وأحسن نزلهما مثلما أحسنا نزل رسوله لديهما، وجزاهما خير الجزاء.

obeikandl.com